(التعريف والنقد)

الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت

نقد ورفد

الدكتور عمر الدقاق

« الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت » كتاب من جمع وتنسيق الأستاذ عبد المعين الملوحي. صدرسنة ١٩٩٢ عن دار الحضارة الجديدة في بيروت، ويقع في ١٣٦ صفحة. ويضم الكتاب قصائد ومقطعات لستة عشر شاعراً، معظمهم جاهلي أو مخضرم، مثل بِشْر بن أبي خازم، وطَرَفَة بن العبد، وهُدْبَة بن الخَشْرَم، ومالك بن الريب، بالإضافة إلى بعض الشعراء والمتصوفةالمتأخرين مثل الحلاج والطغرائي...وقد توسع الأستاذ الملوحي قليلاً، فذيّل كتابه بملحق وجيز، أورد فيه مقطعات لشعراء آخرين لم يشتهروا برثاء أنفسهم، وكانت لهم خطرات نفس بصدد الموت والمآل إلى القبر والفناء، جديرة بالاهتمام.

أ- التعريف والنقد :

من المقولات الذائعة بصدد الجود عند العرب بيت يقول:

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وإلى جانب الجود بالنفس بوسعنا القول أيضاً إن رثاء الذات أو بكاء النفس من الموضوعات التي عرفها الشعر العربي. وهذه المراثي القليلة التي خلفتها لنا قرائح الشعراء جديرة بأن تتربع على قمة أغراض الشعر وموضوعاته، لكونها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مفعمة بمشاعر الحزن الواري، ومتواشجة مع أسمى المشاعر الإنسانية، وأصدق معاني الحرقة على النفس، وأعمق النظرات في طبيعة الحياة وحقيقة المصير الذي يؤول إليه كل حي.

وهل يمكن أن يكون ثمة زيف أو رياء، أو يكون نفع أو رجاء، تجاه جبروت الموت، وفي مواجهة العالم الآخر، حين تستتم الحياة دورتها، فيستسلم المرء إلى قدره، ويمضي في نهاية المطاف إلى مصيره..؟

من هنا تبدو أهمية الموضوع الذي تناوله الأستاذ الملوحي، الذي يتمتع بذوق مرهف ونظر ثاقب، وهو الشاعر الأديب الناقد، فضلاً عن ثقافة تراثية وطيدة، وهو الباحث الدارس المؤلف.

ومع أن عدداً من المؤلفين قديماً كصاحب كتاب عيون الأخبار، وصاحب العقد الفريد، وصاحب الأغاني، سبق ان تناولوا هذا الموضوع على نحو ما، وتوقفوا ملياً عند هؤلاء الشعراء وأمثالهم، وأن عدداً آخر أيضاً منهم تناولوا الشعراء الذين قُتلوا أو اغتيلوا، أو الشعراء الذين أسروا وسجنوا... فإن كتاب «الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت» يعد طريفاً في اطار التليد الأصيل. والموضوع في حقيقته لقطة تنمّ على ذكاء لمّاح تجلت لدى الملوحي في تسليط الضوء على موضوع إنساني محدد المعالم، وسط خضم زاخر من الأدب الموروث الحافل.

وإذا كان بعض الكتب وليد المناسبة ككتاب الحماسة لأبي تمام، أو وليد المصادفة كرسالة الغفران لأبي العلاء، فإن لكتاب الملوحي وتأليفه قصة أيضاً تنطوي على قدر من الغرابة والطرافة.

فقد كُتب على عبد المعين الملوحي أن يشدَّ الرحال، في ما يشبه المغامرة السندبادية، منطلقاً من ربوع بردى والعاصي وبلاد منابت الزيتون، إلى بلاد يأجوج ومأجوج، مؤثراً العيش حيناً من الزمان بجوار سور الصين العظيم. أجل، مضى إلى الصين، لا طلباً للعلم، بل رغبة في التعليم، وهو المعلّم أولاً وأخيراً.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويشاء القدر أن يمتحنه في غربته، ويبلوه بإصابة في بعض عروق دماغه، وشلل في شق جسده، فإذا هو أمام الموت الرهيب الذي يفغر فاه، ويحدد نحوه أنيابه. وإذ ذاك، وكما تذكّر أحمد شوقي وهو منفي في الأندلس سلفه البحتري، وكلاهما حزين مطرق خاشع أمام مآثر الأجداد وآثارهم، تذكّر الملوحي أيضاً سلفه مالك بن الريب، وكلاهما ناءٍ عن أهله، غريب عن وطنه، وقد دنا منه الموت، وكان عليه أن يودّع دنياه. لقد تفجرت قريحة الملوحي الشاعر عن قصيدة مفعمة بالأحاسيس، نابضة بالمشاعر تجاه ألم لاكسائر الآلام، ألم الغربة وألم المرض، وعلم الموت الفاحم يلوح بين عينيه. إنها تجربة مُرَّة أخرى في أعماق هذا الأديب الشاعر، بعد أن عرف من كثب ماهية الموت وقسوته وجبروته قبل سنين بعيدة، حين فجع بزوجه، شريكة حياته ورفيقة عمره، ففاضت نفسه بأرقّ الشعر وأشجاه، وخير الشعر ماكان وليد المعاناة..، ماأشبه الليلة بالبارحة.

تمنّيتَ يابن الريب لوبتَّ ليلةً (بجنب الغضا تزجي القلاص النواجيا)
وأمنيتي لو بتُّ في حمص ليلة فأسبحَ في العاصي وألقى لداتيا

ويشاء الله أن يمدَّ في أجل الملوحي، فتعود إليه بعد حين عافيته، ويكون أشبه بمن يخرج من فكّي سبعٍ ضار. ولعل ماسبق أن قاله الأقدمون في سبب تأليف حماسة أبي تمام (رب ضارة نافعة)، حين حبسه الثلج الكثيف بخراسان عن العودة إلى وطنه، فقعد يقرأ ويصنّف، بوسعنا نحن في هذا العصر أن نردد العبارة نفسها، فقد خرج الشاعر المؤلف من تلك التجربة المحنة في الصين بقصيدة، وأيضاً بكتاب.

* * *

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، حين عارض الملوحي مالك بن الريب بقصيدة مشابهة، فإنه مما يلفت النظر أن في أشعار الأقدمين عدة قصائد في موضوع رثاء النفس، ذكر المؤلف بعضها، وفاته ذكر بعضها الآخر. وهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جميعاً منسوجة على منوال واحد من حيث الوزن والقافية، فهي منظومة على البحر الطويل، ورويّها الياء المنصوبة. ولا ريب في أن أشهرها قصيدة مالك بن الريب، ومطلعها[١]:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

وللشاعر الجاهلي عبدِ يَغُوثَ بنِ صَلاءَة قصيدة أوردها المفضَّل الضبّي في مفضلياته، وفيها رثى نفسه. وقد اختلف الرواة وأصحاب الاختيارات في عدد أبياتها، وشكّوا في زيادات بعضها الآخر، ومنها قوله[٢]:

أيا راكباً، إمّا عرضت فبلّغنْ ندامايَ من نجران أن لا تلاقيا

وللشاعر صُرَيْمِ بنِ مَعْشَرٍ الملقب بأُفنون التغلبي قصيدة لاتتجاوز سبعة أبيات بكى فيها نفسه قبل موته، وهو أيضاً من شعراء المفضليات، ومنها قوله[٣]:

لعمرك مايدري امرؤ كيف يتّقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا

والقصيدة الأخرى من هذا القبيل للشاعر الأموي جعفر بن عُلْبَةَ، ومنها قوله[٤]:

أحقاً ـ عبادَ الله ـ أن لست رائيا صحاريَ نجدٍ والرياحَ الذواريا

أما علقمة ابن سهل – وهو ممن فات المؤلفَ ذكرُهم – فقد كان له على هذا الصعيد دلو بين الدلاء، ومن أبياته التي يصف فيها ساعة دفنه[٥]:

(١) أثبت القصيدة أبو علي القالي في أماليه ٣: ١٣٥، كما أوردها أبو الفرج في أغانيه ٢٢: ٢٨٥، ط دار الكتب، والجاحظ في البيان والتبيين، ٣: ٣٧، وابن قتيبة في الشعر والشعراء، وابن عبد ربه في العقد الفريد...

(٢) الأغاني، أبو الفرج، ط دار الكتب، ١٦: ٣٢٨.

(٣) الشعر والشعراء، ابن قتيبة ١: ١٨٧، ٢، ٣٨٢.

(٤) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ط دار الكتب ١٣: ٤٥، وفي الحماسة، شرح التبريزي، دار القلم ١: ١٣٣ أبيات لجعفر ليس بينها هذا البيت.

(٥) الحيوان، الجاحظ ١: ١٢١ تحقيق عبد السلام هارون، مصر ١٩٦٥. وقد أورد ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١: ٢٢١ أربعة أبيات أخرى لعلقمة بن سهل ليس بينها هذا البيت.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ودُلّـيتُ فـي زوراء، ثُمَّتَ أعـنـقـوا لشـأنـهـم، قـد أفـردونـي لشـانـيـا

هؤلاء الشعراء، الذين طاب أيضاً للملوحي أن يشاركهم في شجوهم ويجاريهم في شعرهم، يشتركون جميعاً في ظاهرة فنية لافتة للنظر، وهي تشاركهم في شكل القصيدة من حيث البحر والقافية. وكان منتظراً من مؤلف الكتاب أن يستوقفه هذا الأمر، وهو بصدد تناوله الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، مع أنه أورد العديد من هذه القصائد، وأشار إلى بعض التداخل بينها...

ومع أن قصيدة مالك بن الريب هي الأشهر بين هذه القصائد على الإطلاق إلا أنها ليست الأقدم، وناظمها ليس هو الرائد ولا السابق، بل هو التالي أو اللاحق. وبوسعنا أن نمايز بين هؤلاء الشعراء على صعيد أزمانهم وأعمارهم، وتعاقبهم على النظم، وذلك على نحو من الترجيح والظن، لا القطع والجزم. فيكون أسبقهم صُرَيْمُ بنُ مَعْشَرٍ فعبدُ يَغُوثَ، ونضع بعدهما علقمة بن سهل الذي أدرك الإسلام، ثُم يليه مالك، وأخيراً جعفر بن عُلْبَةَ...

* * *

على أن مايمكن أن يؤخذ على الكتاب افتقاره إلى ثبت بالمصادر يكون عاماً شاملاً، على الرغم من أن المؤلف حرص على إيراد المصادر المحددة مع صفحاتها المطلوبة، وذلك لدى تناوله كل شاعر من شعراء المراثي.

وفي صدد المصادر أيضاً ثمة اختصارات مخلّة أحياناً، ولا يشفع لذلك قول قائل إنها معروفة للمثقف أو للمختص، فالمنهج العلمي السائد يقتضي ذكر اسم المؤلف ومكان الطباعة وزمانها، وطبعة الكتاب... فلا يكفي ان نقرأ مثلا: (الأوائل ٢: ٢٢٦) دون ذكر صاحبه، ونظنه أبا هلال العسكري، ثم متى طبع الكتاب وأين و...

كذلك شأن عبارة (الجمهرة ١٤٢)، فالمتخصص يدرك بالقرينة وسياق الموضوع أن المقصود هو كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الألوكة www.alukah.net

الرغم من أن كتباً أخرى تحمل الاسم نفسه، أي الجمهرة، ومنها كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد اللغوي الشاعر. وقد يستهين بعض الناس بمثل هذه الملاحظات، ولكننا نقول، أي جدوى من هذه العبارة من الوجهة التوثيقية: (العقد الفريد ٣: ١٧٦)، مادامت هنالك طبعات عديدة للكتاب، أهمها اثنتان: واحدة لأحمد أمين ورفاقه، أي طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، والأخرى طبعة الاستقامة لمحمد سعيد العريان. والإشكال نفسه وارد بصدد كتاب (شرح المفضليات)، ومعلوم أن طبعاتها أيضاً متعددة. وهذا ينسحب على جميع الفهارس الواردة في تضاعيف الكتاب، مثل كتاب «الأعلام»، فبدلاً من ذكر الجزء والصفحة، وهما يتفاوتان باختلاف طبعاته، يمكن ذكر اسم العلم موضوع البحث، مثلا: قيس بن الحدادية...

والمصادر نفسها يبدو أنها لاتتوالى على نسق ما، بل ترد هكذا تباعاً: عيون الأخبار – الشعر والشعراء – طبقات الشعراء – الجمهرة..، دون مراعاة تسلسل حروف الهجاء، ولا التسلسل الزمني لصدورها...

وأكثر من ذلك أن تتوالى المصادر اعتباطاً دون اعتماد أسماء المؤلفين أو أسماء الكتب، بل خلطها جميعاً: المحبر – الآمدي – الزوزني – سمط اللآلي...

وفي صدد النصوص، ولاسيما القصائد، حرص المؤلف على ضبطها بالشكل، ولكن هذا الضبط يفتقر إلى الدقة، وبعضه يجانب الصواب، وذلك لكثرة الأخطاء المطبعية، ومن أمثلة ذلك، وهذا كثير، ماوقع في القصيدة الضادية لطرفة في المطلع، ثم في الأبيات ٥، ١١، ١٢، ١٣، ٣٠..، فضلاً عن الاضطراب في البيت الثلاثين، وكثيراً ماتنتقل حركة الحرف المراد إلى ماقبله أو مابعده، حتى إن القارئ ليؤثر أحياناً إهمال الضبط على هذا النحو وتركه غفلاً من الشكل. ومن الغريب أن يحدث هذا الإغفال في بعض النصوص، فلا يبدو فيها أي أثر للضبط، من مثل ماورد في الصفحتين ٤٥ و ٤٦ اللتين تتضمنان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أرجوزة قيس بن الحدادية قبل مقتله، ثم قصيدته العينية التي تلتها، والتي ذكرها أبو الفرج. وواضح أن المؤلف سها عن ذلك جملة..

ولعله كان من تمام فضل المصنّف أن يكلف نفسه مزيداً من العناء، فيعمد إلى صنع فهارس أخرى يذيل بها كتابه، مثل فهرس للأشعار وآخر للأعلام وما إلى ذلك، ففي هذا الجهد إغناء للعمل العلمي، وفيه تيسير على القارئ.

* * *

ب- الأشعار الرائدة (لـ«الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت»):

وهي جملة من النصوص استدركناها على الكتاب، بعد أن فات الأستاذ الملوحي ذكرها، أو سها عنها، ولا نشك في أن أكثرها معروف لمثله.

(١)

وعلقمة بن سهل عمد الى تصوير نهايته، فتخيل إيداعه في القبر، وإغارة الوارثين على ماله، وقد ترجم له ابن قتيبة وأورد له بعضاً من شعره[١]:

فلن يَعدَمَ الباقون قبراً لجثتي ... ولن يعدم الميراثَ مني المَواليا

حِراصٌ على ما كنت أجمع قبلهم ... هنيئاً لهم جمعي وما كنت واليا

ودُلِّيتُ في زوراءَ[٢] ثمَّتَ أعنقوا[٣] ... لشأنهم قد أقردوني وشانيا

وقد اختلط بعض هذه الأبيات بقصيدة مالك بن الريب المشهورة، كما تداخلت أشطر من هذه في تلك، فهذا البيت الأول لعلقمة قريب من قول

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، ١: ٢٢١، دار المعارف، القاهرة ١٩٦١. والحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون ١: ١٢١، القاهرة ١٩٦١. وبين المصدرين اختلاف في الرواية.

(٢) الزوراء: الأرض البعيدة.

(٣) أعنقوا: أسرعوا ومضوا.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مالك[١]:

ولـن يَعـدم الـوالـون بثاً يـصيبهم ولـن يَعـدمَ الميـراثَ مـني المَـوالـيا

(٢)

لما أسنّ الشاعر المخضرم عَبْدَة بن الطبيب ورابه بصره، شعر بدنو أجله، ودعا بنيه، وراح يوصيهم بقوله[٢]:

أبَنيّ، إني قـد كبـرتُ ورابـني بـصـري، وفـيَّ لـصلحٍ مستمتَع

ثم يقول بعد أن يُلقي على مسامعهم جملة من النصائح:

ولـقد علمـت بـأن قَصْري حفرة غـبراء يـحملـني إليـهـا شَرجَـع
فـبكـى بناتي شجوَهـن وزوجتي والأقـربـون إليّ ثـم تـصدعـوا
وتُـركـت في غبراء يُكره وِردُها تَسفي عـليّ الريـحُ حـين أودَّع
فـإذا مـضـيت إلـى سبيلي فابعثوا رجـلاً لـه قـلبٌ حديـدٌ أصـمـع
إن الحـوادث يـخـترمـن، وإنمـا عـمر الـفتى فـي أهلـه مستودَع
يـسعى ويـجمـع جاهداً مستهتراً جداً، ولـيس بـآكـلٍ مـايـجـمع
حـتـى إذا وافـى الحِمام لـوقـتـه ولكـل جنب لامـحالة مـصـرع
نـبذوا إليـه بالسلام فـلـم يـجـب أحـداً، وصُـمَّ عـن الـدعـاء الأسمع

(٣)

وللشاعر عامر بن الطفيل رجز ارتجله وهو يشرف على الهلاك في إحدى

---

(١) كتاب الأمالي، أبو علي القالي ٣: ١٣٥، دار الكتب المصرية ١٩٥٣. والأغاني، دار الكتب، ٢٢/٨٥.

(٢) شرح المفضليات، المفضلية ٢٧، ٢: ٥٤١، التبريزي، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة ١٩٧٧.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعارك[١]:

يـانـفسُ إلا تُـقـتـلي تمـوتـي
هـذا حِـمـام المـوت قـد صليت
ومـا تمـنيـتِ فـقـد أُعـطيت

* * *

وعَدِيّ بن زيد واحد من الذين أحسوا بوطأة الموت، ولكنه لم يواجهه كما واجهه الشاعر الفارس عامر بن الطفيل، لقد تخيل نفسه وقد أدرج في كفنه...[٢]

... وحُـمَّت لميقاتي إلـيّ مـنيّتـي وغـودرتُ إن وُسّدتُ أو لـم أوسَّد
وللـوارث الـباقي من المال فاتركي عتابي، فإني مصلح غيرُ مفسد

(٤)

وقد عاش الشاعر لبيد بن ربيعة العامري عمراً مديداً، وحين حانت وفاته وهو على فراشه قال بين يدي ابنتيه[٣]:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضرْ
ونائحتان تندبان بعاقل أخا ثقةٍ لا عينَ منه ولا أثر
وفي ابنَيْ نزارٍ أسوةٌ إن جزعتما وإن تسألاهم تُخبَرا فيهمُ الخَبرَ
وفيمن سواهم من ملوك وسوقة دعائم عرشٍ خانه الدهر فانقعر
وقولا: هو المرء الذي لا خليلَه أضاع، ولا خان الصديقَ ولا غَدَر

(١) العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين ورفاقه ٥: ١٦٠، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥.

(٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، ١: ٢٢٦، دار المعارف ١٩٦٦.

(٣) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢١٤، تحقيق إحسان عباس، الكويت ١٩٨٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى الحَول ثُم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

(٥)

وروى المبرّد أن صاحباً له رأى رجلاً معتكفاً على قبر، فسأله: ياهذا، فرفع رأسه إليّ، وكأنما هب من رقدة فقال: ماتشاء. فقلت: أعلى ابنك تبكي؟ قال: لا. قلت: فعلى أبيك؟ قال: لا، ولا على نسيب ولا صديق، ولكن على من هو أخصّ منهما. قلت: أو يكون أحد أخصّ ممن ذكرت؟ قال: نعم.

وحين مر الصاحب بالقبر اغتبط، إذ لم يجده. غير أنه وجد بجوار القبر صخرة كتب عليها هذا البيت:

وما نحن إلا مثلُهم، غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وتقدموا

فعرف أن الرجل إنما كان يبكي على نفسه[1].

(٦)

وأبو فراس الحمداني الأمير الشاعر أصيب في معركة على مشارف حمص بجرح رغيب، وحين أيقن بانتهاء أجله قال بين يدي ابنته أبياته الذائعة يواسيها ويودع الحياة:

أبنيَّتي لاتجزعي كل الأنام إلى ذَهابِ
نوحي عليّ بحسرة من خلف سترك والحجابِ
قولي إذا ناديتني فعييتُ عن ردّ الجواب
زين الشباب أبو فرا سٍ، لم يمتّع بالشباب

(٧)

وسيرة ملك قرطبة في الأندلس المعتمد بن عباد مأساة مؤثرة، حين أنزل

(١) الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرّد، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي، ٣: ١٤٦٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن عرشه، وقيّد بالسلاسل والأغلال، ثم سيق إلى سجنه ومنفاه في أغمات بالمغرب العربي. وقد فجرت التجربة القاسية في نفسه أشجى الأشعار، ومنها قوله يرثي نفسه وما آل إليه حاله:

قبرَ الغريب، سقاك الرائحُ الغادي ... حقاً ظفرتَ بأشلاء ابن عباد

نعم، هو الحقّ وافاني به قَدَر ... من السماء فوافاني لميعاد

كفاك، فارفق بما استودعتَ من كرم ... روّاك كلُّ قَطوب البرق رعّاد

يبكي أخاه الذي غَيَّبْتَ وابلُه ... تحت الصفيح بدمعٍ رائحٍ غاد

حتى يجودَك دمعُ العين منهمراً ... من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد

ولا تزلْ صلوات الله دائمةً ... على دفينكَ لا تُحصى بتعداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net